المرأة الغلامية في الاسلام

بقلم حبيب زيات (*)

من مخلّفات فقيد العلم والادب ، حبيب زيّات ، اوراق ووثائق عديدة ، قُدّر له ان يُبوّب قسماً منها وها نحن ننشر اليوم هذا الدرس الطريف عن « المرأة الغلامية في الاسلام» الذي سيروق قرّاء المشرق الكرام بما فيه من نكتة وظرف وبما نجد في المؤلف من حبّ العودة الى الاصول ومن الولع في التنقيب ما امكنه عن امور قلّ ان اهتمّ بها مؤرّخو العصور الغابرة مع انها تُعطي صورة حيّة عن الجوّ الاخلاقي والادبي في تلك الايام . اذ لا يستطيع مؤرخ ما اذا طارت به النفس الى تأريخ فترة من العصور الماضية الّا ان يتوقف عند بعض المظاهر اليومية التي كان لها اليد الطولى في توجيه سياسة او في توطيد علاقات. وسننشر في عدد مقبل من هذه المجلّة درساً آخر شيّقاً عن « حمل اللحى في الاسلام» .

وما تُرك لنا ان نقدّمه للقرّاء الكرام وثائق مبعثرة جمعتها يد ذلك العالم الكفوء وحفظتها الى ان تُنقلت الينا وهي عبارة عن رسائل اصلية تُبودلت بين احبار الكنيسة الملكية والمجامع الرومانية . فان نشرناها بكاملها – ونحن صانعون – ادّينا لتاريخ الكنيسة الملكية العزيزة خدمة جلّى في ما يتعلق بالعدد الكبير من ابرشياتها السورية واللبنانية . وقد فضّلنا نشر هذه الوثائق دون تأويل ولا تعليق تابعين توقيتها الزمني فقط اذ هي كافية لتطلع القارئ على الامور التي كانت حجر عثرة او محور تبادل او نقطة انفراج ، تاركين للمؤرّخ ان يستفيد منها ويقابل بين الواحدة والاخرى كي يستخلص منها ما له ان يستخلصه . وبالله الكريم التوفيق وهو حسبنا .

الاب ا. عبده خليفه اليسوعي

المقدمة

في كتاب الفهرست لابن النديم الوراق اسماء عدة مصنفات في اخبار النساء واوصافهن واهم ما ذكر منها «كتاب من تشبه بالرجال من النساء» لابي الحسن المدائني (ص ١٥١ من طبعة القاهرة) وهو اليوم اعوز كتاب لنا لاستطلاع اخبار المرأة الغلامية في الاسلام وتعرف المحل والمقدار الذي بلغته في الحضارة والظرف في الحياة الاجتماعية بيد اننا لا ندري هل الم فيه مؤلفه بنعوت النساء المترجلات في اخلاقهن وازيائهن وسائر احوالهن ام اقتصر فقط على سرد اسماء من اشتهر منهن بتقليد الذكور وروى بعض غرائبهن وما كن ينفردن به من المحاسن والمساوئ ولم نعثر على كتاب آخر في معناه وغاية ما وقفنا عليه من اسماء الكتب الموضوعة في اخبار النساء عامة ما يأتي :

كتاب القيان والجواري للجاحظ[1] .

كتاب النساء لابن قتيبة[2] .

كتاب اخبار المتظرفات لابي الطيب الوشا[3] .

كتاب اخبار النساء وكتاب من وصف امرأة فاحسن[4] .

كتاب تحف الوسائد في اخبار الولائد لابي الفرج الاصبهاني[5] .

كتاب الوشاح للمرزباني فيه وصف احوال النساء ونعوته وضروبه وطرقه واخبار المغنين والمغنيات الاحرار والاماء والعبيد[6] .

كتاب اخبار النساء للميداني[7] .

كتاب اخبار النساء للهيثم بن عدي[8] .

كتاب النساء للجاحظ[9] .

---

١) الوافي بالوفيات للصفدي خزانة اكسفرد 11-12 Seld. Arch. a 28 f°

٢) الفهرست ١١٥

٣) » ١٢٦

٤) » ١٤٩

٥) نهاية الارب للنويري ٥ : ٩٨

٦) الفهرست ١٩٣

٧) معجم الادباء لياقوت ١٤ : ١٢٣

٨) معجم الادباء ١٩ : ٣١٠

٩) » » ١٦ : ١٠٨

كتاب اخبار النساء لمروان بن علي المتحم[١] .

كتاب النساء لحفص بن عمرو الصفري[٢] .

كتاب النساء لاحمد بن عبدالله الرقي وكتاب الزينة وكتاب الزي له[٣] .

كتاب اخبار النساء لابن حاجب النعمان[٤] .

كتاب النساء وما جاء فيهن من الشعر ومحاسن ما قيل فيهن من الشعر والكلام الحسن[٥] .

كتاب قيان المحاز وكتاب القيان لاسحق بن ابرهيم الموصلي[٦] .

كتاب اخبار المتظرفات لابي الفضل احمد بن ابي طاهر او لابنه ابي الحسن[٧] .

كتاب اخبار النساء لابن الشاه الظاهري[٨] .

كتاب المتظرفات والمتظرفين لعبيد الله احمد بن ابي طاهر[٩] .

كتاب النساء لابرهيم بن القاسم القيرواني[١٠] .

كتاب المستظرف من اخبار الجواري لجلال الدين السيوطي من مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق ٣٠ صفحة (رقم ٥٥٨٦ مجموع عام) .

وفي تضاعيف الكتب والمجاميع الادبية فصول شتى واوصاف للنساء كالباب السابع والعشرين في النعوت والصفات وهي اربعون نوعاً : الحادي عشر في النساء ولباسهن وزينتهن من التذكرة الحمدونية وقد كان هذا الجزء منها محفوظاً في خزانة نور الدين بك في القاهرة .

وقد عبث الدهر بمعظم هذه المؤلفات الممتعة واضاعها اثرا بعد عين وحرمنا بفقدها اهم ما يُستند اليه في تعريف المرأة والقينة والوصيفة الغلاميات ولعل انفس ماكان منها كتاب الزينة وكتاب الزي للرقي ثم كتاب اخبار المتظرفات لابي الطيب الوشا لما قد يكون اودعه فيه الوشا من اوصاف النساء والولائد والاماء في الحلي والزي والملبس والتعطر والمعاشرة والمغازلة كالتي اشار اليها وسرد جانباً منها في كتابه الموشى المطبوع لاول مرة في ليدن ولم يبقَ لنا اليوم بعد ضياع هذه النسائيات الا تفلية كل سفر مطبوع او مخطوط وتلقط كل وصف او اشارة في النثر والنظم تشف عما وراءها من نعوت الغلاميات في

١) معجم الادباء ١٩ : ٢٦٢
٢) » ١٠٠
٣) معجم الادباء ٦ : ١٣٣
٤) الفهرست ١٩٣
٥) » ٢٠٦
٦) الفهرست ٢٠٣
٧) » ٢١٠
٨) » ٢١٨
٩) » ٢١٠
١٠) معجم الادباء ١ : ٢١٦

حضارتين عباسية وفاطمية وهو ما تجسد ... وتوفر عليه في يدنا مخطوطات العربية في الشرق والغرب حتى اجتمع لنا من هذه المطالعات والتنقيبات المضنية نوادر وروايات ولمع وحكايات تمثل جانباً من خصائص الفلامية وفوارقها وما امتازت به في المشرق من شكل وزي وتظرف وتشطر وعبث ومجون وتزين واقتنان ودل وحظوة ما يتشوّق الى معرفته كل متطلع الى غرائب الحياة والمجتمع العربي في الدهر السالف راغب في النظر الى اعجب وجه وقد في الاسلام فتن بها الخلفا. والخلائق وبزّ بها الشرق كل ما اشتهر به الغرب من إغراب وإبداع وجرأة على خرق العادات والخروج عن المألوف لاستدعاء الانظار واجتذاب القلوب .

المرأة المترجلة في الجاهلية واوائل الخلافة الاموية

في صحيح البخاري ان الرسول لعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال[1] اي في زيهم وهيئتهم وعن ابي هريرة انه لعن الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل[2] وقيل لعائشة: ان المرأة تلبس النعل فقالت: لعن رسول الله الرجلة من النساء.[3] لان النعل كانت لا تستر كل القدم وبعض الساق خلافاً للخف . وهذه الاحاديث تدل دلالة بينة على ان داء الترجل في النساء كان شائعاً في البادية وظل معروفاً في الاسلام .

وروي عن نافع انه قال : كان ابن عمر وعبد الله بن عمرو عند الزبير بن عبد المطلب اذ اقبلت امرأة تسوق غنماً متنكبة قوساً فقال عبدالله بن عمرو أرجل انت ام امرأة فقالت امرأة فالتفت الى ابن عمر وقال : ان الله تعالى لعن عن لسان نبيه (صلعم) المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء.[4] .

واشار الذهبي الى الالبسة التي تتشبه بها المرأة بالرجل فقال : اذا لبست

---

١) صحيح البخاري ٧ : ٥٢

٢ و٣) سنن ابي داود ٢ : ١١٨

٤) كتاب الكبائر للذهبي ١٣٠

المرأة زي الرجال من المقالب والفرج والاكمام الضيقة فقد شابهت الرجال في لبسهم فتاحقهم لعنة الله ورسوله ولزوجها[١] وهذا بعض ما كانت المرأة تتقلد به الرجل وهنالك البسة وازياء اخرى كانت تختلف باختلاف الازمنة والعادات .

ومن اشهر المترجلات في الصدر الاول عزة الميلاء احدى المغنيات المحسنات في عهد جيلان بن ثابت قيل كانت تلبس الملاء. وتتشبه بالرجال فسميت بذلك[٢] وتلحق بها ام سعيد الاسلمية وبنت ليحيى بن الحكم بن ابي العاصي «كان المخنث الدلال ملازماً لها وكانتا من اهجن الناس تخرجان فتركبان الفرسين فتستبقان عليها حتى تبدو خلاخيلها فقال معاوية لمروان بن الحكم : اكفني بنت اخيك فقال: افعل فاستزارها وامر ببئر فحفرت في طريقها وغطيت بحصير فلما مشت عليه سقطت في البئر فكانت قبرها وطلب الدلال فهرب الى مكة[٣] وليت الراوي ذكر لنا ايضاً ما فعل الدهر ام الرجال بام سعيد وكيف كانت منيتها .

وفي ايام الحجاج تزوج الضحاك الشاعر باربع نسوة وكان قد سمع الحجاج يرغب في ذلك ووصفهن بابيات قال في الزوجة الثالثة منهن :

وثالثة ما ان تُوارى بثوبها مذكّرة مشهورة بالتبرّج[٤]

وهو ما يشير الى رقة ثوبها وشفوفه عن بشرتها .

وقد غابت عنا اكثر اخبار النساء واحاديثهن في الخلافة الاموية وقد غطت عليها جلالة الحوادث وشدة التنازع بين الطالبيين والامويين وضاع معها معظم دواوين الشعراء المتقدمين فلا ندري من شؤون المرأة فيها واوصاف الجواري والوصائف والاماء ما يبنى عليه حكم او يصح فيه تمثيل على ان البادية لم تخلُ قط قبل الهجرة وبعدها من فتيات مذكّرات يتشبهن بالرجال في اللباس والتعمم والتلثم وطلب القنص والغزو وركوب الخيل ومعاقرة الشراب كالفتيان ومن الامثلة في ايام عمر بن ابي ربيعة ما حكاه عمر عن صديق له من عذرة يقال له الجعد بن مهجع وصف له فيه يوم الدوحة قال :

---

١) كتاب الكبائر ١٣٩

٢) الاغاني طبعة بولاق ١٦ : ٨٣

٣) الاغاني ٤ : ٦٤

٤) ذيل الامالي والنوادر للقالي طبعة بولاق ٦٨

[illegible] في رجل ذو مال كثير من نعم لا يحصره ويرويه الزاد وقطر الغيث ارض كلب فانتجعت اخواني منهم فاوسعوا لي عن صدر المجلس وسقوني جمة[1] الماء. وكنت فيهم في خير اخوال ثم اني عزمت على موافقة ابلي بماء لهم يقال له الحوزان فركبت فرسي وسمطت[2] خلفي شرابا كان اهداه لي بعضهم ثم مضيت حتى اذا كنت بين الحي ومرعى النعم رفعت لي دوحة عظيمة فنزلت عن فرسي وشددته بغصن من اغصانها وجلست في ظلها فبينا انا كذلك اذ سطع غبار من ناحية الحي ورفعت لي شخوص ثلاثة ثم تبينت فاذا فارس يطرد مسحلا[3] واتاه فتأملته فاذا عليه درع اصفر وعمامة خز سوداء واذا فروع شعره تضرب خصريه فقلت غلام حديث عهد بعرس اعجلته لذة الصيد فترك ثوبه ولبس ثوب امرأته فما جاز علي قليلا حتى طعن المسحل وثنى طعنة للاتان فصرعها واقبل نحوي وهو يقول :

اطعنهم سلكى ومخلوجة كرك لامين على نابل[4]

فقلت انك قد تعبت واتعبت فلو نزلت فثنى رجله فنزل فشد فرسه بغصن من اغصان الشجرة والقى رمحه واقبل حتى جلس فجعل يحدثني حديثا ذكرت به قول ابي ذؤيب :

وان حديثا منك لو تبذلينه حنى النحل في ألبان عوذ مطافل[5]

فقمت الى فرسي فاصلحت من امره ثم رجعت وقد حسر العمامة عن رأسه فاذا غلام كأن وجهه الدينار المنقوش فقلت : سبحانك اللهم ما اعظم قدرتك واحسن صنعتك فقال : بم ؟ قلت : مما راعني من جمالك وبهرني من نورك قال : ما الذي يروعك من حبيس التراب وأكيل الدواب ثم لا يدري أينعم بعد ذلك ام ييأس قلت : لا يصنع الله بك الا خيرا . ثم تحدثنا ساعة فاقبل

(١) جمة الماء معظمه .
(٢) سمط علق .
(٣) المسحل الحمار الوحشي .
(٤) السلكى الطعنة المستقيمة والمخلوجة الطعنة الموجة واللأم سهم عليه ريش لؤام بلأم بعضه بعضا والنابل صاحب النبل .
(٥) عوذ جمع عائذ وهي الحديثة النتاج الى خمسة عشر يوما ثم هي بعد ذلك مطفل .

عليّ وقال : ما هذا الذي سمطت في سرجك ؟ قلت : شراب اهداه اليّ بعض اهلك فهل لك فيه من أرب قال : انت وذاك فاتيته به فشرب وجعل ينكت احياناً بالسوط على ثناياه فجعل والله يتبين لي ظل السوط فيبن فقلت : مهلاً فاني خائف ان تكسرهن فقال : ولِمَ قلت انهن رقاق وهن عذاب ثم رفع عقيرته يتغنى :

اذا قبّل الانسان آخر يشتهي ثناياه لم يأثم وكان له اجرا
فان زاد زاد الله في حسناته مثاقيل يمحو الله عنه بها الوزرا

ثم قام الى فرسه فاصلح من امره ثم رجع فبرقت لي بارقة تحت الدرع فاذا ثدي كأنه حق عاج. فقلت : نشدتك الله امرأة ؟ قالت : اي والله الا اني اكره العَهَر[1] واحب الغزل . ثم جلست فجعلت تشرب معي لا افقد من انسها شيئاً حتى نظرت الى عينيها كأنهما عينا مهاة مذعورة فوالله ما راعني الا ميلها على الدوحة سكرى فزين لي والله الغدر وحسن في عيني ثم ان الله عصمني منه فجلستُ حُجرةً منها فما لبثت الا يسيراً حتى انتبهت فزعة فلاثت عمامتها برأسها وجالت في متن فرسها وقالت : جزاك الله عن الصحبة خيراً قلت : اما تزويدينني منك زاداً ؟ فناولتني يدها فقبّلتها فشممت والله منها ريح المسك المفتوت فذكرت قول الشاعر :

كأنما اذ تنضّى النوم وانتبهت سحابة ما لها عين ولا اثر

قلت : واين الموعد . قالت : ان لي اخوة شُرُساً وباً غيوراً ووالله لأن اسرك احب اليّ من ان اضرك ثم انصرفت فجعلت اتبعها بصري حتى غابت فهبي والله يا ابن ابي ربيعة احتني هذا المحل وابلغتني فقلت له : يا ابا المسور ان الغدر بك مع ما تذكر لمليح فبكى واشتد بكاؤه فقلت : لا تبكِ فما قلت لك ما قلت الا مازحاً ولو لم ابلغ في حاجتك بالي لسعيت في ذلك حتى اقدر عليه فقال لي خيراً .

فلما انقضى الموسم شددت على ناقتي وشد على ناقته ودعوت غلامي فشد على بعير له وحملت عليه قبة حمراء من ادم كانت لابي ربيعة المخزومي وحملت معي

[1] في الاصل المطبوع : اكره البشير وهو تصحيف يخالف ما يقتضيه الكلام والصحة . العهر اي الفجور .

الف دينار ومطرف خز وانطلقنا حتى اتيت بلاد كلب فسئلنا عن ابي الجارية فوجدناه في نادي قومه واذا هو سيد الحي واذا الناس حوله فوقفت على القوم فسلمت فرد الشيخ السلام ثم قال : من الرجل ؟ قلت عمر بن ابي ربيعة بن المغيرة فقال : المعروف غير المنكر فما الذي جاء بك ؟ قلت خاطباً . قال : الكفء والرغبة . قلت : اني لم آتِ ذلك لنفسي عن غير زهادة فيك ولا جهالة لشرفك ولكني اتيت في حاجة ابن اختكم الهذري وها هو ذاك فقال : والله انه لكفء الحسب رفيع البيت غير ان بناتي لم يتقن الا في هذا الحي من قريش[1] فوجمت لذلك وعرف التغير في وجهي فقال : اما اني صانع بك ما لم اصنعه بغيرك قلت : وما ذاك فمثلي من شكر قال : اخيرها فهي وما اختارت قلت : ما انصفني اذ تختار لغيري وتولي الخيار غيرك . فاشار اليّ الهذري أن دعه يخيرها فارسل اليها ان من الامر كذا وكذا فارسلت اليه : ما كنتُ لاستبد برأي دون القرشي فالخيار في قوله حكمُهُ . فقال لي : انها قد وكلتك امرها فاقضِ ما انت قاض فحمدت الله عز وجل واثنيت عليه وقلت : اشهدوا اني قد زوجتها من الجعد بن مهجع واصدقتها هذه الالف ديناراً وجعلت تكرمتها العبد والبعير والقبة وكسوت الشيخ المطرف وسألته ان يبني عليها في ليلته فارسل الى امها فقالت : أتخرج ابنتي كما تخرج الامة فقال : هجّري[2] في جهازها فما برحتُ حتى ضربت القبة في وسط الحريم ثم أهديت له ليلاً وبت انا عند الشيخ فلما اصبحت اتيت القبة فصحت بصاحبي فخرج اليّ وقد اثّر السرور به فقلت : كيف كنت بعدي وكيف هي بعدك فقال لي : ابدت لي والله كثيراً مما كانت اخفته عني يوم اتيتها فسألتها عن ذلك فانشأت تقول :

كنت الهوى لما رأيتك حازعاً ... وقلت فتى بعض الصديق يريد
وأن يطّرحني او يقول نُنيّهة ... يضرّ بها برح الهوى فتعود
فورّيت عما بي وفي داخل الحشا ... من الوجد برح فاعلمنّ شديد

فقلت : أقِمْ على اهلك بارك الله لك فيهم وانطلقت وانا اقول :

---

١) معلوم ان الخليفة معاوية تزوج ميسون الكلبية وهي ام ولده يزيد .
٢) هجّري اي اسرعي وبادري .

كعبت اخي البدوي ما كان مانعاً ... ولي لاعباء النوائب حامل
اما استحست مني المكارم والعلى ... اذا اطمأنت اني لما هي بذال[1]

وهذا المثال وحده جامع لكل ما كانت المرأة في البادية تطمع فيه لمحاكاة الرجل في لباسه وهيئته وعمته وركوبه واعتقاله الرمح وتكبه القوس للقنص ومطاردة الوحش ومعاقرته الشراب حتى السكر ولكنها كانت للعفة الغالبة عليها تقف عند حدود الدين والانس ومع محبتها للغزل كانت تكره العهر اي الفجور كما قالت الفتاة الكلبية

لقب الغلامية

يراد بالغلامية المرأة المشبهة بالغلام في زيه وشكله وهيئته وهو ما وصفها به ابو نواس بقوله :

وجارية لها شكل الغواني ... فتاة السن في زي الغلام[2]

واتم منه مطابقة قوله فيها ايضاً :

مذكّرة مؤنثة مهاة ... اذا برزت تشبهها غلاما[3]

وله فيها اوصاف اخرى سيأتي ذكرها قريباً فاق بها سائر الشعراء وممن جرى على سننه في نعتها المعلّى الطائي فقال من ابيات :

مورّدة الخدين مضمومة الحشا ... مقرنة الصدغين فاترة الطرف
تقمّص اثواب الرجال تمرّدا ... وتأنف من لبس القلادة والشنف[4]

ولا ريب ان هذا اللقب نشأ في اوائل الخلافة العباسية وقد خلا الشعر الاموي منه لان القوم وقتئذٍ كانوا احدث عهداً بالبداوة واقرب الى الفطرة فتنزهت اشعارهم عن كل ما يخالف السجية من آفات الحضارة فلم يقم منهم من تصبى غير الغواني وألفها او تغزل بالغلمان ولا يبعد ان بعض التشبيه بالذكور

---

١) الاغاني ١٠ : ٥١ — ٥٣ وجمهرة الاسلام ذات النثر والنظام لابي الفتائم مسلم بن رسلان الشيرازي خزانة ليدن Arabe 287 Warn f° 27

٢) ديوانه طبعة القاهرة ٣٣٢

٣) ديوانه خزانة باريس ٦٨٣٠ ص ١٨٦

٤) كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ١٦٨

في الوصائف الامويات كان قد بدأ ينتشر في بعض المنازل والمدن كطعم الشعر اي قصّه كشعر الغلمان لانه كان معروفاً في الجواري الرويات في القسطنطينية وهنّ اشبهن الى اهل الشام واهل هذا الترجل كان ايضاً يشاهد في نساء فارس ويقال للمرأة المترجلة عندهم زنمردة وهي التي دعاها شاعر الاغاني زمرّدة فقال :

لُبيت زمّردة كالمها العنّ واغيث من كندش

وقيل في تفسيرها الزمردة امة في زنمردة وهي المرأة التي تشبه الرجال خلقاً وخُلقاً[1].

الرقيق والوصائف والنساء الغلاميات في الخلافة العباسية

كان الترجل في الخلافة العباسية لا يكاد يجاهر به ويتخلق باخلاقه سوى الاماء. والوصائف والجواري الاعجميات دون الحرائر من الاشراف لانهن كن يترفعن عن هذا التقايد والابتذال ولذلك لما وُصفت للمتوكل على الله ريطة بنت العباس بن علي « فحُملت اليه فتزوجها سألها ان تطم شعرها وتتشبه بالمماليك فأبت عليه فاعلمها انها ان لم تفعل فارقها فاختارت الفرقة فطلقها »[2] وكان المتوكل احد الخلفاء المغرمين بالنظر الى الغلاميات وسماع التغزل بهنّ في الشعر كما سيجيء.

وقد ذكر بعض الرواة والاخباريين تغلب حب التسري اي التزوج بالاماء على اهل الصدر الاول بعد فتوح البلدان ونقل المبرّد نكتة عدّد فيها ثلاثة من اولاد الخلفاء الاولين ابي بكر وعمر وعلي بن ابي طالب كان كل منهم ابن أمة اي ام ولد كما كان يقال لها ويسري هذا الشغف بالجلائب الى جمهور الخلفاء العباسيين فلم يتم منهم من امة عربية هاشمية الا اثنان فقط ونشأ سائرهم هجيناً اي وليداً من ام غير عربية خلافاً لبني أمية فان الهجنة كانت تقعد بمن كانت امه سبية او جليبة عن تبوأ عرش الخلافة كسلمة بن عبد الملك

---

١) الاغاني ١١ : ٢٧١

٢) المحاسن والاضداد المنسوب للجاحظ طبعة ليدن ٢٣٦

وغيره من الخلفاء. وكان كثيرون يرتأون ان ضياع الخلافة كانت علته التزوج بالاجنبيات ولذلك قال ابو العلاء المعري:

ألم ترَ للخلافة كيف ضاعت اذا كانت بابناء السراري

ولما كان الناس دائماً على دين الملوك عم حب الاغتراب المتزوجين في الاسلام حتى ندر جداً من لم تخالط دمه العربي نطفة اعجمية في ما خلا اعراب البادية في الغالب ومن هنا تعلم ما في ازدهاء المباهين بالعروبة من الافراط والدعوى والمغالطة في الا[illegible] الصحيح.

وحكى الاصمعي «اهل المدينة كانوا يكرهون اتخاذ امهات الاولاد حتى نشأ فيهم علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب، والقا[illegible] بن محمد (بن ابي بكر) وسالم بن عبدالله (بن [illegible]) صاروا اهل المدينة فقهاً وورعا فرغب الناس في السراري»[1].

ولم يتصف ابناء السراري الهجناء بالفقه والورع فقط بل اشتهروا ايضاً بالشجاعة والاقدام حتى قالوا «ما ضرب رؤوس الابطال كابن اعجمية»[2] وعلل عمر بن الخطاب حبَّ التمري بقوله «ليس قوم اكيس من اولاد السراري لانهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم»[3].

واصل هنالك سبباً آخر كان الغالب في ايثار الاعجميات على العربيات وهو قول رجل من ابناء المهاجرين: «ان ابناء هذه الاعاجم كأنهم نقبوا الجنة وخرجوا منها واولادنا كأنهم مسامير التنانير»[4] (يعني بالمسجرة الخشبة التي يقلّب بها الوقود في التنور ويغشاها السخام ولا يخفى صدق هذا الوصف).

ولهذه الاسباب كلها فشا حب الجلائب الاجنبيات بين طبقات الخاصة والعامة وغلب الدم الاعجمي على الدم العربي في المواليد والانساب وكان تأثيره في الاشراف والخلفاء اشد منه في سائر الناس لقدرة الملوك ورجال الدولة على نقد اثمان الجواري مهما بلغت فضلاً عما كانوا يتحظون بهن من السبايا والحسان

---

١) عيون الاخبار لابن قتيبة ٤٠٠٠ طالع مقالتنا «امهات اشراف المسلمين» في المزانة الشرقية ٢ : ٩٥-١٠٢

٢) عيون الاخبار لابن قتيبة ٤ : ٣

٣) الكامل للمبرد (مطبعة التقدم) ١ : ٢٥٤-٢٥٥

اللواتي كان العمّال والقوّاد يتقربون بهن اليهم ومن الغريب ميل كثير من الطالبيين والهاشميين الى الحبشيات والبربريات على ما اتصفن به من القمة والسواد وقلة الصباحة ولا ريب ان مثل هذه القابلية العجيبة التي كانت تعاقب بين الشهد والحنظل صارت الى ابن المعتز من آبائه واجداده وهي التي أمات عليه قوله الذي ملأه ظرفاً وحناناً :

قلبي وثّاب الى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يحيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه

شكل الغلامية وزيّها

اول اوصاف الغلامية تشبهها بالغلام الامرد الذي نسبت اليه قال ابن الرومي :

رب فتاة حرّة المقلد تختال في زي غلام امرد[1]

وقد اجاد ابو نواس في وصفها وبلغ الغاية في تعريفها واشار الى نشأتها فقال :

وشاطرة تنيه بحسن وجه كضوء البرق في جنح الظلام
رأت فري الغلام اتم حسناً واوهى للنفوس وللأثام
فما برحت تصرّفُ فيه حتى حكته في الفعال وفي الكلام
وراحت تستطيل على الجواري بفضل في الشطارة والمرام
تعاف الدف تكريماً وفتكاً وتلعب للمجانة بالحمام
ويدعوها الى الطنبور حذق اذا دارت معتقة المدام
وتغدو للدوالج كل يوم وترمي بالبنادق والسهام
ترجّل شعرها وتطيل صدغا وترخي كمها فعل الغلام[2]

وهذه الاوصاف مرآة الغلامية في الاسلام وهي نسخة شكلها واخلاقها كما كانت في زمن ابي نواس والشاطرة في اللغة كل امرأة أعيت أهلها خبثاً وفتكاً وعرفت بالتهتك والجرأة والمجانة ولها زي خاص تمشي به مختالة مبلة كما فعل

١) مختارات من ديوانه طبعة الكيلاني ٤٣٨

٢) ديوانه باريس ٥٨٣٠ ص ٣٣١

الغلام وربما حاكته ايضاً بتقلد السلاح والتظاهر بالتطوب والارهاب كما وصفه ايضاً ابو نواس بقوله :

وكيف اخشاك يا من يصد عمداً ويجر
غمر مسبل كم معتدًا لي غدرا[1]

وهذه الاخلاق داخلة في وصف من قال : الناس اربعة : مليح يتبغض لملاحته...[2] وهذا بغض كان يقال له التكريه وهو بهذا المعنى غير وارد في اللغة ولا بأس ان نورد بعض الشواهد التي جمعناها قال الحسن بن هانئ :

شاطرة ان شئت نكرهه أخذ تكريهها بسلطان[3]

وله ايضاً :

فقلنا له والكأس ترهى بكفه وقد وقد الابريق فيها وقرقرا
بربك خمراً او نقيعاً سقيتني فقال من التكريه ماء مزعفرا[4]

وله ايضاً :

وخذ من كف جارية وصيف رخيم الدل ملثوغ الكلام
لها شكل الاناث وبين بينا ترى فيها تكاريه الغلام

وللحسين بن الضحاك :

وشاطري اللسان يختلق التكريه شاب المجون بالنسك[5]

ولمصعب الكاتب :

وشاطر ذي احتيال في تكرهه كالغصن يألف فتاقا وشطارا[6]

ولابن عبد ربه صاحب العقد :

يا ايها الخنث الجفو ن بخسرة ونكرّه[7]

ولابن الرومي :

ورقاصة بالطبل والصنج كاعب لها نهج مخناث وتكريه قائك[8]

---

١) ديوانه باريس ٣١٩-٣٢٠
٢) نثوار المحاضرة ٨ : ١٢١
٣) ديوانه طبعة مصر ٣٩٥
٤) ديوانه طبعة مصر ٣٨٥
٥) الاغاني ٦ : ١٧٥
٦) ديارات الشابشتي برلين ٨٥
٧) يتيمة الدهر طبعة مصر ٢ : ٨٦
٨) ديوانه باريس ٤٨٣٠ ص ٣٢٧

واحسن ما جاء في وصف التكريه قول ابي نواس :

احب الغلام اذا كرّها ... واصرفه شيئاً امرها
وقد مرّ يخطر في ثوبه ... وحل الجيوب وما زرّها
وقد حذّر الناس سكينة ... فكلهم يتقي شرها[1]

وانما عد ابو نواس الضرب بالدف من التكريه والشطارة لانه كان في الغالب من خصائص القيان والمغنيات كما كان الضرب بالطنبور من خصائص المغنين فكانت الغلامية تعاف الدف ترفعاً عن شبه النسوان وتؤثر الطنبور اقتداء بالرجال والغلمان .

وقد امتاز العصر العباسي بكثرة اقبال الناس فيه على الالعاب كالمحارشة بين الكلاب والمناطحة بالكباش والمناقرة بالديوك واللعب بالحمام والرمي بالبنادق والسهام والضرب بالكرة والصولجان وركض الخيل فكانت الغلامية تمشي كل هذه الالعاب وتشارك الذكور بالمراهنة عليها وتجيد ايضاً لعب النرد والشطرنج وهو ما اغفل ابو نواس ذكره في ما سبق من ابياته ولكنه المح اليه في ابيات فضّل فيها الغلام على الغلامية وقال في وصفه مشيراً اليها :

غنٍ عن لعب شطرنج ونرد ... وعن لعب الديوك مع الحمام
بلعب الصولجان ولعب بازٍ ... وركض الخيل في طلب النعام[2]

وفي قوله : ترجّل شعرها اي تسرّحه إلماع الى انها كانت لا تعقصه ذوائب بل ترسله كشعر الغلام الامرد مطموماً مرجّلاً وتطيل صدغها نظايره وسنبسط الكلام في فصل آتٍ على طم الشعر والجواري المطمومات وقد سبق الايماء اليهن غير مرة .

ولدينا في وصف زي الغلامية وتفصيل لباسها قصيدة اخرى لابي نواس رواها ابن منظور في جملة اخباره وقدّم عليها حديثاً لابن الداية جاء فيه شرح لهذا الزي كافٍ لتصوير الغلامية من قرنها الى قدمها كما كانت تبدو به للناس وتخطر به في القصور والاسواق والمجتمعات قال يوسف بن الداية النحاس وهو شاهد عياني :

« كانت الشعراء تجتمع في كل يوم بباب اسماء بنت المهدي وكان لهم مجلس

١) ديوانه باريس ٤٨٣٠ ص ٣٢٧ ٢) ديوانه باريس ٣٣٣

يجتمع عليهم فيه اهل الادب وكان يحضر ذلك المجلس ابو نواس فنظر يوما الى وصيفة قد خرجت من قصر اسماء علامية شاطرة عجزاء مطمومة ناهد وعليها اقبية ومنطقة وفي رجليها نعلان فاشتد عجبه بها ومازحها فلم يزل ذلك دهراً . . . فقال لي يوماً : امضِ بنا الى باب اسماء لننظر الى من يحضر اليوم من الشعراء ونتعرف خبرًا . ان كان حدث فمضينا فبينا نحن على باب اسماء اذا بالجارية قد خرجت وعليها قباء وشي منسوج بالذهب وسراويل وشي اخضر منسوج بالذهب وعلى رأسها مجبة منسوجة بالذهب ابريسمة وفي رجليها نعل مغشاة بديباج وعليها منطقة ذهب مفرقة على زرياب حرير عريض وقد غابت في خصرها من انهضامه فما يكاد يبين وفي يدها قضيب خيزران تعبث به فدهشتُ وكل من حضر اليها وبهتنا الى براعة جمالها وحلاوتها وحسن زيها . . . فاقبلت تخرج وتغيب وتتهادى وتتثنى في مشيها حتى وقفت حيالنا . ونظرت اليه نظرًا دلني على ان في قلبها منه شيئاً فانشأ يقول وهي تسمعه وكان اسمها معشوق :

لقد صبّحت بالخير عين تصبّحت ... بوجهك يا معشوق في كل شارق
مغرطقة لم يُحنها سحب ذيلها ... ولا نازعتها الريح فضل البنائق
تشارك في الصنع النساء وسلمت ... لحسن ضروب الحلي غير المناطق
ومطمومة لم تتصل بذؤابة ... ولم تعتقد بالتاج فوق المفارق
كأن بخط الصدغ فوق خدودها ... بقية انفاس باصبع لاتق
نذرته بماء المسك حتى جرى لها ... الى مستقر بين اذن وعاتق
غلام والا فالغلام شبيهها ... وريحان دنيا لدة للمعانق
تجمع فيها الشكل والزي كله ... فليس يوفي وصفها قول ناطق
فطانة زنديق ولحظة قينة ... بعين الذي يهوى ومنية عاشق
وتقطيب سجنيّ ونكريه شاطر ... ونظرة جنيّ ولحظ منافق
لقد كحلت عين عليك ثلاثة ... لصاحبها باقية للخلائق[1]

ولا نعلم شعرًا او نثرًا أجيد فيها وصف للغلامية بين شكل وزي هذه الاجادة ولا نخال انه اتفق لاحد من الشعراء تمثيلها بين خَلق وخُلق كما مثلها ابو نواس ولولاه لحرمنا كثير من اخبارها وملحها ومن الشقاء ان لا يكون انتهى الينا من آثار السلف مثل هذه الاوصاف النادرة التي اجتمعت فيها دقة

١) اخبار ابي نواس لابن منظور ١٦٧–١٦٨

التفصيل الى وفاء التمثيل وفاتنا بضياعها او باهمالها فوائد وطرائف شتى لا تقدَّر لمعرفة حقيقة حياة المرأة بين عادات ومصطلحات وازياء وانباء وغرائب وعجائب وقبل ان نبدأ باستقراء هذه الابيات لنستوضح منها ما غبي علينا من تفصيل زي القلامية وحليتها نرى من اهم الشؤون ان نستدعي النظار الى ما ورد له ايضاً في خاتمتها من تعداد نعوتها وحُلاها ليكون تتمة لما تقدم من تعريفها وهو قوله الذي بلغ فيه الغاية من الشرح والجرح :

تجمع فيها الشكل والزي كله فليس يوفي وصفها قول ناطق
فطانة زنديق ولحظة قينة بعين الذي يهوى ومنية عاشق
ونقطيب سجيّ وتكريه شاطر ونظرة جنيّ ولحظ منافق

ومثل هذا الوصف بالفطنة والفتنة هو دون ريب اصل اصطلاح العامة في اطلاق لفظ الشاطر او الشاطرة على كل من تميز بالحذق والنباهة .

واول ما يجدر التنبيه عليه من زي القلامية لبسها القُرْطق وهو قباء فارسي ذو طاق واحد قصير لا يتجاوز مقدم الساق اشتهر في الخلافة العباسية كانت اكثر ما تلبسه السقاة لخفته ورشاقته في التنقل والخدمة وقد اكثر الشعراء من ذكره في مجالس الشراب ولذلك قال السري الرفاء في احدى رواهب دير يوسف بالموصل :

ومهنهف لو كنت املك امره بدّلت خُلق سوحه بقراطق[1]

اي جعلتها ساقية ومثله قول ابن المعتز

ومقرطق يسعى الى الندماء بعقيقة في درة بيضاء[2]

وقد اومأ ابو نواس الى قصر القرطق وخفته بقوله : لم يُثنِها سحب ذيلها اي انها بلبسها القرطق كالغلام قد تخلصت من طول ثوب الغانيات وثقل جرّه فبان شطاطها واستقام قدها لقلة ما يزوده ويُحنيه من ذيول ثياب النساء وتعذر منازعة الريح فضول بنائقها وفي كتب اللغة ان البنائق جمع بنيقة وهي جيب الثوب اي الطوق المحيط بالعنق وهو لا محالة غير المفهوم هنا من هذه اللفظة لامتناع تمكن الريح من الطوق المزرور وفي ديوان الحسن بن هانئ عدة الفاظ

١) ديوانه في مجموع ٣٠٩٨ في خزانة باريس ١٦٧
٢) شفاء الغليل للخفاجي ١٧٧

مولدة عربية لا تغني الماحم شيئ في تأويلها كانت معروفة في عصره وهي خافية علينا لقلة احتفال شراح ديوانه بتفسيرها والبيقة احدى هذه الالفاظ ويظهر ان المراد بها هنا مطلق الثوب الطويل وقد وردت بهذا المعنى في بيت اخر للحسن بن هانئ قال فيه :

متخرسن دين النصارى دينه ذو قرطق لم يتصل ببنائق[1]

وجاءت ايضاً بمعنى الثوب في تاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية (رقم ١٨٦٧ من خزانة باريس ص ١٧) .

وقد مرّ بنا من قول ابن الداية ان وصيفة اسماء خرجت وعليها اقبية (بلفظ الجمع) والقبا هو المعروف اليوم بالقفطان وذلك لان بعض النساء والرجال كانوا يظاهرون بين عدة اثواب لاختلاف الوانها ووشيها حباً بالمباهاة بها وجر اذيالها المشهّرة .

كاذيال خوذ اقبلت في غلائل مصيّنة والبعض اقصر من بعض

ومن اغرب ما روي من سخف الرجال بمضاعفة الاقبية ما حكاه الحاتمي عن المتنبي حين دخل عليه قال : فاذا به لابس سبعة اقبية كل قباء منها لون[2] وهو يكاد الّا يصدّق من مثله فلا غرو بعد ذلك اذا كانت الظلاميات يلبسن احياناً عدة قراطق او اقبية زهواً واختيالاً .

ومن لوازم القباء والقرطق لكل من لبسها دائماً المنطقة تُشدّ على الحقوين وتغيب في الخصر لتظهر بها دقته وانهضامه واكثر ما يتخذها المتظرفات من الذهب والفضة ومن الحرير والابريسم ووصف ابن الداية منطقة وصيفة اسماء بانها من ذهب «مفرقة على زرياب حرير عريض» وهذا الوصف جعل هذا اللفظ غامض لا يتبين له معنى صحيح لان الزرياب يطلق على الذهب او ماء الذهب فلا يُرى كيف يكون الذهب مفرقاً على ماء الذهب ولا شك ان هنالك تحريفاً شذ على الناسخ والطابع ولعل الاصل « مفرقة على زريافته اي محلاة على نوع من الديباج والكلمة فارسية مركبة من زر وهو الذهب وبافته او بفته وهو نسيج من القطن .

١) ديوانه باريس ٣٤٨٤ ص ١٢٥
٢) وفيات الاعيان طبعة باريس ٧١٩

وقد صرح ابو نواس ان الوصيفة مع مشاركتها للنساء في التصنع والتجمل تركت لهن ضروب الحلي واقتصرت على المنطقة وحدها وبرزت عاطلة مجردة لتكون ابعد عن شبه النسوان واقرب الى الغلمان ولكي يكون تقليدها للغلام اتم واكمل طمت شعرها اى قصت ذوائبها واطرحت تاجها وهو ضرب من ضروب التزين بالشعر فوق المفرق ووضعت موضعه « عجيسة » منسوجة بالذهب اي شبه قلنسوة او عمامة حبست بها شعرها وهذه اللفظة بهذا المعنى غير واردة كذلك في كتب اللغة ونقل عن جارية اخرى انها تقلدت السيف ايضاً مع القلنسوة لتبلغ الغاية من التوجل وهي جارية حمدان قال علي بن الجهم : خرجت علينا وقد تقلدت سيفاً محلّى وعلى رأسها قلنسوة ومكتوب عليها :

تأمّل حسن جاريـة يحار بوصفهـا البصر
مـذكّرة مؤنثـة فهي انثى وهي ذكر[1]

واشهر من تقلد السيف واعتم بالشاشية من الفتيات البانوقة بنت الخليفة العباسي المهدي روى الطبري حديثاً لبعضهم قال : رأيت المهدي يسير وعبدالله بن مالك على شُرطه يسير امامه في يده الحربة وابنته البانوقة تسير بين يديه وبين صاحب الشرطة في هيئة الفتيان وعليها قبـاء اسود ومنطقة وشاشية متقلدة السيف واني لأرى ثدييها قد رفعا القباء لنهودهما قال وكانت البانوقة سمراء حسنة القد حلوة فلما ماتت وذلك ببغداد اظهر عليها المهدي جزعاً لم يسمع بمثله[2].

ولا بدع اذا تعددت الغلاميات في عهد العباسيين وفشا زيهن بين الجواري والوصائف ولهنّ مثل هذه القدوة العلية والاسوة الهاشمية والناس كما قيل على دين الملوك .

وما يجب ان لا يُذهل عنه من وصف ابن الداية قوله ان الوصيفة خرجت «وفي رجليها نعل مغشّاة بديباج » وقد يشذ عن علم الكثيرين ان النعل كانت من احذية الرجال وتقدم في الحديث انه قيل لعائشة ان المرأة تلبس النعل فقالت: لعن رسول (صلعم) الرجلة من النساء. لان النعل لا تغطي كل القدم ولا الساق

١) العقد الفريد ٣ : ٣٦٦

٢) تاريخ الرسل والملوك طبعة اوربة ١ : ٥٤٤

وذا لبست المرأة الحذاء المكشوف رجلها وهو مكروه للنساء وانما كانت تتخذ هن الخفاف لطول ساقها وسترها ما بين الكعب والركبة فاذا عدمت الخلامية عن الخف واتخذت النعل تكون اتم شبهاً بالغلام وقد أومأ ابو نواس في بعض اشعاره الى مثل هذا التقليد فقال :

مذكّرة الحذاء اذا استهلّت لا ر لا ينازعها الكلام[1]

وللمتظرفات افانين في زي النعال ، بلغن فيها الغاية من الترف والبطر ومن اشهر من اغرب جدًا في اتخاذها واسرف كل الاسراف في اختيار نفائس الثياب والطيوب لتجهيزها السيدة ام الخليفة المقتدر حكى بعض من كان يعاملها قال : كنت اشتري لها ثيابًا ربيعية يسونها ثياب النعال وذلك انها كانت صفاقاً تقطع على مقدار النعال المحذوّة وتطلى بالمسك والعنبر المذاب وتجمد ويجعل بين كل طبقتين من الثياب من ذلك الطيب ما له قوام ونحن نفعل بطاقات كثيرة كذا وناف بعضها على بعض ثم نصمغ حواليها بشيء من العنبر وتلزق حتى تصير كأنها قطعة واحدة وتجعل الطبقة الاولة بيضاء مصقولة ونخرز حواليها بالابريسم ونجعل لها شُركاً من ابريسم كلها كالشرك المضفورة من الجلود وتلبس قال وكانت نعال السيدة من هذا المتاع لا تلبس النعل الا عشرة ايام او حواليها حتى تخلق وتتفتت وتذهب جملة دنانير في ثمنها وترمى فتأخذها الخزّان او غيرهم فيستخرجون من ذلك العنبر والمسك فيأخذونه »[2].

ويتبين من وصف هذا الزي المذكّر الذي نُهي منه كل ما تُشتم منه رائحة الانوثة ان الخلامية كانت لا تتميز اصلًا من قرنها الى قدمها بشيء عن الغلام ولذلك قال الطيبي :

لولا نبات الشعر في خده لم ندر اي الاغيدين الغلام

ولم يفتها ايضاً تقليده في حركاته وشمائله فكانت اذا مشت او خطرت حاكته في ارخاء الكم بدلًا من امساكه وهو من خصائص الفتيان والشطّار حتى في الاندلس وقد شهد به الوزير ابن شُهيد فقال :

---

١) ديوانه باريس ٣٠٨٤ ص ١٨٧

٢) ـ ـ ٣) نشوار المحاضرة للتنوخي ١ : ١٤٣-١٤٤

هبّ من مرقده منكسرًا مبلّلًا لكم مرخيّ اردا[1]

وقد تقدم من قول ابي نواس : « وترخي كما فعل الغلام »

وقول مروان الصغير :

تثني كما يثني العلا م وكتفها مرخيّ كفكفه

- ولابن الساعاتي - من شعراء القرن السادس للهجرة :-

وكأن عصن البان في اوراقه هيفاء خاطرة بكم سُبَل[2]

وبعد كل هذه المآخذ والسرقات التي اقتصت فيها الغلامية العباسية مثال الغلام وتحلت بحليته واتسمت بسماه لم يبق عليها الا ان تتسمى كذلك باسمه وهو ما فعلته ايضًا كما رأيناه من اتخاذ وصيفة اسماء بنت المهدي اسم معشوق بدلًا لها من معشوقة كما مرّ بنا من مخاطبة ابي نواس لها :

لقد صُبّحت بالمهر عين تصبحت بوجهك «يا معشوق» في كل شارق

وبذلك تم لها الشبه وصحّ الاقتداء. واقترن فيها جسم الغلام واسمهُ بحيث:

تجمع فيها الشكل والزي كله فليس يوفّي وصفها قول ناطق

ولكن بقي هنالك فارق واحد بين الجنسين وهو ما تمّ على البانوقة بنت المهدي من نهود تدييها ورفعها للقباء. فهل خطر قط لاحدى الشاطرات الفاتنات ان تكون جدًا. لا تدي لها كما خطر لبعض الغلاميات الاميركيات اليوم ؟

الجواري المطمومات

قد تقدم من قول ابي نواس في الجارية المقصوصة الشعر :

ومطمومة لم تتصل بذؤابة ولم تتقد بالتاج فوق المفارق

وله ايضًا :

وناهدة الثديين من خدم القصر مزرفنة الاصداغ مطمومة الشعر

غلامية في زيها برمكية مناطقها قد غبن في لطف الخصر[3]

وللوزير ابي عامر احمد بن شُهيد الاندلسي من ابيات :

---

١) نفح الطيب ٢ : ٢٢٣

٢) ديوانه طبعة بيروت ٢ : ١١٠

٣) ديوانه باريس ٣٣٥

وريب قام فينا سافيا ... كالرشا الأرضع بين الربرب
هيفة دون الصبايا قُصّمت ... فاتيت غيداء في شكل الصبي
فتح الورد على صفحتها ... وحماه صدغها بالعقرب
فثنت نحوي وقد ملكتها ... مشية الصفور نحو الثلب[1]

ولابي نواس كذلك :

وذات وجه كأن البدر حلّ به ... يهدي لك الورد والتفاح خداها
مطمومة الشعر في قمص مزرّرة ... في زيّ «اردٍ» سباه كسباها
فلو يراها غلام ثم يلمحها ... عض الانامل لولا اللحظ ادماها[2]

وهذه الشواهد كلها تدل صريحاً على ان الغلاميات لم يقصصن شعورهن الا تشبهاً بالشطّار خصوصاً لان بعض الفتيان كانوا يرسلون ذوائبهم كالفتيات ولا سبيل اليوم لبتّ الحكم في اصل هذه العادة هل نشأت في العراق ام دخلت الشام قبلاً مع الوصائف الروميات على كثرتهن يومئذ لقول عبد الملك بن مروان: من اراد الخدمة فعليه بالروميات[3] ومما يرجح ذلك قول ابن المعتز : قال بعض خلفاء بني امية لرجل من جلسائه : ما يطيب في يومنا هذا ؟ فقال : قهوة صفراء في زجاجة بيضاء تناولنيها مقدودة هيفاء مطمومة لقاء.[4] .

ويشبه ان تكون عادة طم الشعور بين فتيات الروم شائعة معروفة في القسطنطينية قبل الهجرة وهو ما رواه ابن عبد ربه ان عمر بن الخطاب لما بعث رسولاً الى هرقل « ذهب الرسول الى باب جبلة (بن الأيهم) قال : فلم ازل اتلطف في الاذن حتى اذن لي فدخلت عليه ... فلما رفع الطعام . . . فاذا خدم معهن كراسي مرصعة بالجوهر ... واذا عشر جوارٍ قد اقبلن مطمومات الشعر متكسرات في الحلي عليهن ثياب الديباج »[5] فيترجح من ثم ان الجواري المطمومات وردن الى الشام من ديار الروم ثم سرى هذا الزي من الشام وعم العراق والشرق حتى شغف به الخلفاء كالمتوكل على الله قال ابن حيان ان بعض

١) الذخيرة لابن بسام طبعة مصر ١ : ١٧٨
٢) ديوانه طبعة مصر ٣٤٠
٣) تحفة العروس لابي محمد عبدالله التيجاني ٥٤
٤) فصول التماثيل ٥٥
٥) العقد الفريد طبعة مصر ١٩٤٦ (٣ : ٥٧-٥٩)

تجار اليهود جاء بر بشتر بعد الحادثة (سقوط المدينة بيد النصارى) ملتمساً فدية بنات بعض الوجوه من نجا من اهلها حصان في سهم قوس من الرابطة فيها كان يعرفه قال : فهديت الى منزله واستاذنت عليه فوجدته جالساً مكان رب الدار مستوياً على فراشه رافلاً في نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما خلفها ربها يوم محنته لم يغير شيئاً من رياشها وزينتها ووصائفة مطموات الشعور قائمات على رأسه ساعيات في خدمته (نفح الطيب ٢ : ٥٧٥) .

فنون الغلاميات في تزيين الرأس والوجه

تقدم من شهادة الاغاني ان المترجلات البدويات كن يتمشين كالرجال ومر بنا من رواية الطبري ان البانوقة ابنة الخليفة المهدي كانت تتقلد السيف وعليها الشاشية ولبس غيرها « المحبسة والقلنسوة » ولما اتخذت زبيدة الجواري الغلاميات لابنها الامين قال العبدي الخراساني « عممت رؤوسهن » ويظهر ان النساء عامة درجن على اعتياد العمائم كالرجال واشتهرن بها في دولة المماليك حتى كانت الولاة تضطر احياناً الى المناداة بالنهي عن هذه العمم قال المقريزي وفي المحرم سنة ٦٦٢ (١٢٦٣ م) نودي بالقاهرة ومصر ان امرأة لا تتعمم ولا تتزيا بزي الرجال ومن فعل ذلك بعد ثلاثة ايام سُلبت ما عليها من الكسوة[1] وفي سنة ٦٩٠ (١٢٩١ م) في شهر رمضان امر الامير علم الدين الشجاعي ان لا تخرج امرأة وعليها عمامة بل مقنعة كالعادة القديمة[2] ولكن لا نعلم كيف كانت تُكوَّر هذه العمائم على رؤوس النساء ولا من اي الاثواب او المنسوجات كانت تصطنع غالباً في في مصر خلا الشرب واللانس ولا شك ان اكثر الجواري والغلاميات كنَّ يتجملن بالوشي من الحرير والابريسم ولا شك ان المتنبي عاين بعضهن وعناهنَّ بقوله :

لبس الوشي لا متجملات ولكن كي يصنَّ به الجمالا

وفي ايام المماليك في الدولة الجركسية قلد النساء الرجال في اتخاذ الطواقي ايضاً قال المقريزي : يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو ثلثي ذراع واعلاها

١) السلوك باريس ١٧٢٦ ص ١٥٤

٢) ذيل مرآة الزمان لليونيني . لندرة add. 23331 f 72 b

مدور مقنب ... ويشبه الرجال في لبس ذلك النساء لمعنيين احدهما انه نشأ في اهل الدولة محبة الذكران فقصد نساؤهم التشبه بالذكران ليستميلن قلوب رجالهن فاقتدى بفعلهن في ذلك عامة نساء البلد"[1].

وقد بحثنا كثيراً فلم نوفق للعثور على شاهد واحد يستدل منه على رواج العصائب بين الغلاميات وكان منها نوع يقال لها العصائب المكللة ابتدع في ايام المهدي قال ابو الفرج في الاغاني : كانت عائشة بنت المهدي شقيقة ابرهيم جميلة الصورة الا انه كان في جبهتها اتساع مفرط فمن اجلها اخترعت العصائب المكللة[2].

ولما كانت الغلاميات مطموسات كما سبق من وصفهن وكان غاية ما يطمحن اليه محاكاة الفتيان لم يبقَ لهن بعد اطراح الذوائب من صنوف الامتشاط والتزيين بالشعر الا تصفيف الطرة وهو زيّ الشطار كما وصف به ابو نواس لما توجه الى مصر قالوا خرج « في زي الشطار وتقطيعهم بطرّة قد صفّفها وكتّفين واسعين وذيل مجرور ونعل مطبق »[3] وهو الزي الذي اختارته زبيدة للغلاميات اللواتي اهدتهن لابنها محمد الامين « وجعلت لهنّ الطرر والاصداغ » .

وفي الشعر اشارات واوصاف كثيرة للصدغ وتشبيهه بالنون والواو والصولجان والعقرب والزرفين اي الحلقة على غير تفاوت بين الغلام والغلامة ولابي نواس في احدى وصائف القصر :

وناهدة الثديين من خدم القصر ... مزرقنة الاصداغ مطمومة الشعر[4]

وله فيهنّ ايضاً .

اصداغهن مقربا ... ت والشوارب من عبير[5]

ولديك جن :

اقبلن والاصداغ في ... وجناتهن مقربات[6]

---

١) الخطط ٣ : ١٦٩

٢) تحفة العروس للسيوطي رقم ١٥٩٣ مكتبة دار الاوقاف بحلب .

٣) اخبار ابي نواس لابن منظور ٢٣٥ وغاية الارب للنويري ٢ : ٢٠٨

٤) ديوانه باريس ٣٠٤٨ ص ٢٣٥

٥) كتاب بغداد لابن طيفور ٣٠٢

٦) غاية الارب للنويري ٢ : ٧٨

والناشئ الاصغر :

لك صدغ كالفا موسه نون كانت
يلدغ الناس اذ تعقرب لذع العقارب

ولابن المعتز في الاصداغ الملويّة كالصوالج :

امن سبج في عارضيه صوالج محطفة تفاحَ خدّيه تضرب

وللثعالبي :

وصولجان المسك في خده متخذ حبة قلبي كُرَه[1]

وربما أطيل الصدغ بالطيب المُذاب وصف به نواس غلاماً شاطرًا فقال :

قل لذي الصدغ المطوّل وذي الشعر المرجّل
ولذي التكريه في المشية والنذر المحلل[2]

ونعت به ايضاً فيما سبق علامة شاطرة فقال :

ترجّل شعرها ونطيل صدغاً وترخي كمها فعل الغلام

وتقدم له ان وصيفة اسماء كانت تطيل صدغها وتصله فوق خدّيها بماء المسك وهو قوله :

كأن مخطّ الصدغ فوق خدودها بقية انفاس بأصبع لاتق
نَدَنْهُ جاء المسك حتى جرى لها الى مستقرّ بين اذن وعاتق

واهم ما كانت تزين به وجهها من المحسنات في اعتقادها :

١ تنميص الحاجبين اي حف ما خرج عن القوس من الشعر وخطها بالمداد والاثمد .
٢ صبغ الشفتين بالحمرة .
٣ خط الشارب بالمسك واخلاط من الطيب .
٤ الكتابة والتصوير على الخدين .

وسنشير في ما يأتي الى كل منها

---

١) غاية الارب ٢ : ٧٣-٧٤
٢) ديوانه باريس ٣٨٣٠ ص ٦٥

خط الشارب بالمسك واخلاط من الطيب

كان لا بد للغلاميات لبلوغ الغاية والنهاية في التشبه بالغلمان من محاكاة الشارب بخط في موضعه ممتد على الشفة كانه الشعر فكن يبثن هذا الخط اما بالمسك كما في قول الاسعد بن بليطة المذكور آنفاً «وشاربك المخضر بالمسك قد خطا» واما بالغالية وهو قوله ايضاً من القصيدة نفسها :

غلامية جاءت وقد جعل الدجى ... خاتم فيها فص غالية خطا
فقلت احاجيب ما في جفونها ... وما في الشفاه اللعس من حنها المطى
فحمرة العينين من سكرة ... متى شربت الحاظ عينيك اسفطا
ارى نكهة المسواك من فيك ضوعت ... وشاربك المخضر بالمسك قد خطا
على قرح قبلته فاخاله ... على الشفة اللعياء قد جاءه مختطا

ونظيره قول ابي نواس في وصف غلاميات في زمانه :

صور البيك مؤنثات ... الدل في زى الذكور
أرهفن إرهاف الاعنة والخمائل والسيور
اصداغهن معقرباً ... ت والشوارب من عبير[2]

وفي حكاية ابي القاسم البغدادي : شارب كخضرة الريحان :

شارب من زبرجد وثنايا ... من اقاح وريقة من عقار (ص ٥٢)

ومن الغلاميات الاواتي اشتهرن بخط الشارب الزرقاء جارية ابن رامين. قال بعض المدنيين : اتيت منزل ابن رامين فوجدت عنده جارية رفع تديها قميصها لها شارب اخضر ممتد على شفتها امتداد الطراز كانما خطت طرتها وحاجباها بقلم لا يلحقها في ضرب من ضروب حسنها وصف واصف فسالت عن اسمها فقيل هذه الزرقاء.[3]

الكتابة والنقش على الخدين

كانت المرأة الغلامية لا تخشى الاسراف والغلو في التزين والتزوق تقرباً من القلوب واستدعاء للانظار فلم تكن تجتزئ بالتفنن في عقد الشعر وارسال

١) نفح الطيب طبعة ليدن ٢ : ٤٥٤
٢) السادس من كتاب بغداد لابن طيفور ٣٠٢
٣) الاغاني ١٣ : ١٣٢-١٣٤

صوره على الحيين وعقوبة المصدقين لما كانت تتخذ الخدين أحياناً والظهور او الجدار وتعهد للمواشط ان تكتب عليه ما تشاء من اسماء الحبيب و تنقش عليه بعض صور الهوام القابلة للزخرفة والتفنن في الرسم المعروفة بخبث السموم القتالة كالحية والعقرب روى المسعودي ان المتوكل الخليفة العباسي قال لعلي بن الجهم الشاعر المشهور : « ويلك يا علي دخلت فرأيت قينة قد كتبت في خدها بالمسك « جعفراً » فما رأيت احسن منه فقل فيه شيئاً فقلت يا سيدي : او انا محبوبة (وصيفة أهديت للمتوكل من الطائف كانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس) قال . بل انت محبوبة . قال فدعوت بدواة وقرطاس فسبقتني الى القول ثم اخذت العود فترنمت ثم خفقت عليه حتى صاغت له لحناً وتضاحكت ملياً ثم قالت : يا امير المؤمنين تأذن لي ؟ فاذن لها فغنّت :

وكاتبة في الخد بالمسك جعفرا ... بنفسي مخط المسك من حيث اثرا
لئن اودعت خطاً من المسك خدها ... لقد اودعت قلبي من الوجد اسطرا
فيا من لمملوك يظل مليكه ... مطيعاً له في ما امرّ واجهرا
ويا من لعبني من رأى مثل جعفر ... سقى الله صوب المستهلات جعفرا[1]

ولابي طاهر اسمعيل بن علي المهدوي ببغداد في جارية صُوّر على خدها بغالية صورة حيّة :

نبذت لنا من جانب السجف غادة ... لها الشمس وجه والكواكب خال
فقلت وقد لاح الهلال بوجهها ... متى طلعت شمس الضحى وهلال

الهلال الاول من اسماء الحية والهلال الثاني هلال الافق[2] .

ولابن الساعاتي عدة ابيات ذكر فيها تصوير الحيّة والعقرب في صفحات الخدود منها .

أرأيت درياقاً كذوب رضابها ... بعث الصدى وهو الزلال السلسل
وكحية او عقرب في خدها ... ابداً تعيد فعالها وتقبل[3]

ومنها :

---

١) مروج الذهب حاشية الكامل ٩ : ١٥٣
٢) ذيل تاريخ بغداد للدمشقي باريس ٢١٣٣ ص ١٠٥
٣) ديوانه ١ : ٦٥

وحريدة بيضاء بلة شعرها — من هجرها وجبينها من وصلها
نقشت مواشطها على وجناتها — صورًا تبدي الغرام لاجلها
او ما عجبت لحية في جنة — دوني تنوز بمائها وبظلها
فحذارها اني استطعت فتنها — مكرت بآدم اختها في مثلها[1]

ومنها ايضاً :

يا غرة القمرين في شرفيها — من اي شيء فيك لم انتحب
كتبت بخديك المواشط فتنة — عمت عموم هواك من لم يكتب
ولقد سمعت وما سمعت بكاتب — شيئاً على صفحات ماء مذهب
جاء الكليم بآية من حية — ولذاك جئت بحية وبعقرب[2]

ومن هذه الشواهد يستدل على ان المواشط في الشرق كنَّ على جانب من معرفة الكتابة والرسم والنقش حاذقات ضروب التحسين والتزويق والتطييب يفعلن ما تفعله في الغرب معاهد الاصلاح والتزيين المعروفة باسم : Institut de beauté

تنميص الحاجبين اي نتف ما خرج عن القوس من الشعر وخطها بالمداد والاثمد

من الغريب الذي يقضي منه العجب ان نساء البدو كنَّ ينتصن حواجبهن بحف ما تجاوز القوس من الشعر لترجيجها كما يدل على ذلك ورود هذه اللفظة في اللغة واستشهدوا على ذلك بقول الراجز :

يا ليتها قد لبست وصواما — ونمّصت حاجبها تنامصا[3]

وفي الحديث . لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله تعالى[4] وكانت الغلاميات يصلحن قوس الحاجبين بالخط حوله بالمداد والاثمد قال دعبل الخزاعي يهجو جاريته غربال :

تخطط حاجبها بالمداد — وتربط في عجزها رفقة[5]

١) ديوانه ٦٥
٢) ديوانه ٦٦
٣) لسان العرب
٤) صحيح البخاري ٧ : ٥٨

صبغ الشفتين بالحمرة

كان العرب يستحسنون الحمرة في الشفاه وهي اللمى والنمى والحوة قال ذو الرمة :

لماء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي اياتها شنب

(فجر السودان على البيضان الجاحظ ليدن ٧٣)

واجاد ابن المعتز بتشبيه ضياء الصبح بابتسام الشفة اللمياء. فقال :

لا تفترى عن مثل ابتسام الشفة اللمياء.[1]

وانما حسن اللمى لانفراجه عن بياض الثغور وهو ما المع اليه ابن الساعاتي بقوله :

واللمى لم تكن لتحمده الالسن حمرا لولا بياض الثغور[2]

وربما علا اللمى حمرة ذهبية من الدم او الصبغ كما في تشبيه كشاجم بقوله في الزهر :

كأن الشفاه اللمس منها خواتم من التبر مختوم بمن على الدر[3]

وكانوا يجبون مثل هذه الحمرة الظاهرة في عداد ما يجمل عندهم منها في المرأة فقالوا : من جملة ما يستحسن من المرأة حمرة اربعة : لسانها وخدها وشفتها وتشريب بياضها بحمرة . وفي رواية اخرى : اللسان والشفتان والوجنتان والبنان[4] .

برد الاكباد في الاعداد للثالبي رقم ٣١٧ ادب دار الكتب المصرية .

ولذلك كانت المتظرفات يخططن فوق شفاههن بخط احمر كما تفعل النساء اليوم وهو ما اشار اليه الوزير ابو عمر واحمد بن شهيد الاندلسي بقوله في وصف جارية : كانما تغرها من جوهر وشفتها خيط حرير احمر[5] ومن الابيات الواردة في وصف الشفة اللمياء الحمراء قول كشاجم :

عذبت في الرشف منه شفة مصها اطيب من قبل الامن

---

١) غاية الارب للنويري ٢ : ٥٨

٢) ديوانه ٣ : ١١٣

٣) العنوان في مكايد النسوان لابن التنبوني الاسوحري 89 f° Or. 4640

٤) بقيمة الثالبي طبعة مصر ٢ : ٣٤

وعلتها حمرة في سمر تستعير اللون من ورد الخجل
مي فيا حبذا اثار دم من فؤادي علّ فيه وصل[1]

ولابن سكرة الهاشمي في وصف قبلة من شفة حمراء :

كأني اذ لثمت فاك بها لثمت نفاحة من الذهب

(غاية الارب ٢ : ٥٩)

كتب بعض المجانين صاحب له يستهويه جارية وقلد في بعض اوصافها : تكون حمراء الشفتين مفلجه ثنايا (مطالع البدور ص ٢٦٦) .

اجمع اهل المعرفة ان الذي يحسن من المرأة من الحمرة اربعة اشياء . منها : حمرة الشفتين (مطالع البدور ٢٦٨) .

وفي اجتماع الحمرة والسمرة حُسن صح معه لابن بَيطلة الاندلسي تشبيه الشفة بتقبيل قوس قزح في قوله مخاطباً احدى الغلاميات :

عبرة العينين من غير سكرة متى شربت الحاظ عينيك اسفطا
ارى نكهة المسواك في حمرة اللمى وشاربك المخضرّ بالمسك قد خُطا
على قزح قبّلته فاخاله على الشفة اللمياء قد جاء مختطا[2]

وكثيراً ما كانت الحمرة تكسو الشفة اللماء فلا يبين منها الا لون الدم ولذلك جاء في خبر الذلفاء وصفتها . وفم كأنه جرح يقطر دما[3] وهو ما نُقل ايضاً في نعت ابنة عوف بن علم الشيباني . شفتان حمراوان كالورد يجلبان ريقاً كالشهد[3] ونظيره قول الازدي في حكاية ابي القاسم البغدادي : ثغر كالاقحوان وشفتان كالمرجان او الارجوان .

ومن احسن ما روي في مدح الشفاه الحمر ما انشده ابو الفرج الاصبهاني في كتاب النساء :

فما انسَهُ لا انسَ منها اشارة بسبابة اليسرى على خاتم الفمِ
واعلنتُ الشكوى اليها فاومأت حذارَ الحسود الواشين ان لا تكلمِ
فلم ارَ شكلاً واقماً فوق شكله كعنّابة يرمي صبا فوق عندم

---

١) غاية الارب للنويري ٣ : ٥٨
٢) مطمح الانفس لابن خاقان طبعة القسطنطينية ٨٣–٨٤
٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣ : ٢١٥ و٢٣٥

وكان نساء بغداد يحسنون احياناً من استعانة بكل شيء يقع القانى لتبرين شفاههم وتطريتها اما للتزيين والتظرف فعل بعض الفتيات والمحشين واما لتسويه لونها وستر شحوبها بعد الصيام والبكاء كبعض الزهاد والعلماء. فيما قيل مثل منصور بن المعمر نقل عنه الذهبي انه « صام اربعين سنة وقام ليلها وكان يبكي الليل كله فاذا اصبح كحّل عينيه وبرّق شفتيه ودهن رأسه » وهو ما يبعث على العجب والاستغراب ولا ريب ان تبريقه كان بنفس الصبغ الذي كان يتجمل به المتبرجات والمخنثون ومن ثم يجب ان يصلح في هذا المعنى قول الاغاني عن الغريض المغني انه « كان يصنع نفسه ويبرقها » كما في طبعة بولاق (٢ : ١٢٨) او « يصنع نفسه ويبرقها » كما في طبعة الدار (٢ : ٣٦٠) بدلاً من « يصبغ شفته ويبرقها » وهو الصواب الذي لا شك فيه .

٥

لا سبيل اليوم لمعرفة مقدار من كان بين هؤلاء السبايا والجواري الاماء من المتظرفات المتشبهات بالغلمان في الشكل والزي قبل ان يطلق عليهن لقب « الغلاميات » في الدولة العباسية وهل كان بعضهن على هذه الصفة في مواطنهن ام اكتسبنها في الحضارة الاسلامية ويظهر ان الروميات بنوعٍ كنّ قد اعتدن الطمّ اي قص الشعر والترجل في بلدانهن كما سيجيء. وقد خلت ايدينا اليوم من اخبار النساء الامويات ولم يُقيَّض لهنّ من يشيد بمحاسنهن ويمجد وصفهن والتشبيب بهن كالحسن بن هانئ لانصراف شعراء بني امية في الغالب الى فنون الشعر المبتذلة كالفخر والمديح والهجاء والغزل والرثاء والاقلال جداً من نعت الحانات والدساكر ووصف المجالس والمجتمعات التي كانت تتجلى وتتبارى فيها المترجلات والشاطرات وعلى كل حال فما لا يُرتاب فيه ان الغلامية في الاسلام لم تبلغ الغاية والنهاية في التفنن والاغراب الا في ايام العباسيين لاقبال الخلفاء والناس على ايثارهن والاعجاب بهن كالمهدي والرشيد والامين والمأمون والمتوكل والقاهر كما سنشرحه قريباً واما في الشام فكانوا كما قال الجاحظ اشهى النساء عندهم الروميات وبنات الروميات[1] لكثرة ما يرد منهن من سباء الحروب

١) كتاب فخر السودان على البيضان طبعة ليدن ٧٩

ورقيق النخاسين وتخلق القوم في الغالب باخلاق الروم البيزنطيين مع ما ورثوه عنهم من احوال المعيشة وفنون الحضارة .

وقد خلت كما قلنا اشعار الخلافة الاموية من كل نعت للمرأة الغلامية ولا بدع لان القوم وقتئذ كانوا احدث عهد بالبداوة واقرب الى الفطرة للتنزه عن كل ما يخالف السجية من آفات الاجتماع والاختلاط فلا تجد في اشعار الجاهليين والمخضرمين من تصبّي غير النواني والمهما حتى اذا اقبلت دولة المولّدة والقت مقاليدها الى الاعاجم من عاوج خراسان تغلب معها السواد على الالوان والابدان وسقطت الحشمة من النفوس والرؤوس وكان اول من اضرم هذه النار واستدرج القوم الى هذه المخزية فيما حكاه الجاحظ في كتاب المعلمين ابو مسلم صاحب هذه الدولة « حين سنّ لتلك العساكر الّا يصحبها النساء خلافاً لجند بني امية الذين كانوا لا يفارقون الظعائن في حل وترحال ولما لم يكن بد لتلك الجيوش من يتولى خدمتهم ارتبط لهم ابو مسلم الغلمان لخفة مؤونتهم وطالت صحبتهم لهم فطالت فتنتهم بهم »[1] وبقيت هذه الشهوة كامنة في القلوب كل خلافة المنصور وبعض ايام المهدي والهادي حتى كان الرشيد فازدادت في وزارة البرامكة انتشاراً ولكن حالت هيبة الخلافة ووقارها دون المكاشفة بها في بغداد فكان القوم اذا ارادوا الاجتماع على معاقرة الشراب ومقارضة التغزل بالغلمان يتسترون في البصرة هرباً من الشرطة والسجن الى ان جاء احمد بن اسحق الخاركي استاذ ابي نواس فجاهر ولم يتكتم وتبعه تلميذه شيخ هذا المذهب فوضع القناع وصاح ملء الاسماع .

ألا فاسقني خمرًا وقولي لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا اذا امكن الجهر

وبعد ان غنى حيناً وهو ينشد :

حب النواني من الرشاد ولو يكاد يبدي المحب من أجله
فتنٌ بالحسن يوسفا وكذا داود حتى بنى على رجله
وزينب يثبت محمدنا فبان زيد وصار من بدله[2]

---

١) ديوان ابي نواس ٣٠٨٠ خزانة باريس ١٨٦
٢) ديوان ابي نواس ٣٠٨٠ خزانة باريس ٦٢

ما حدث بينه وبين ولده وعتبي يعاتبه كما قال محمد الأزدي :

وعاتبه ندماه على الصحو والصبا	عتاباً واصحاً مثل المهاة
وقالت قد حسرت ولم توفق	لطيب عيش وصال الغانيات
أأختار الجدار على البراري	وحبتاً على طي الفلاة
دعيني لا تلوميني فاني	على ما تكرهين الى الممات
هذا اوصى كتاب الله فينا	تفضيل البنين على البنات[1]

وقد اقرّ الحسن بن هانئ ان الخازكي كان المجلي في هذه الحلبة وهو ما رواه عبدالله بن المعتزّ في كتابه الذي ألّفه في الاختيار من شعر الشعراء. وحكى عن ابن الداية انه سمع ابا نواس يقول : ما لجمت ولا خلعت العذار حتى عاشرت احمد بن اسحق الخازكي وكان غير الناس قبله بالبصرة دهرهم الاطول يكاتمون بالمجون في نعت الخمر وذكر الندماء واظهار الفسق حتى جاء الخازكي فجاهر بالقول في ذلك ولم يحتشم منهم فامتثلنا نحن ذلك ومن جاء بعدنا ممن يذهب مذهبنا عيال علينا[2]

وكان الامين قد عرف ابا نواس وندمه فلما صارت الخلافة اليه ادناه وطلب الخصيان وابتاعهم وغالى بهم وصيّرهم لطعامه وشرابه وامره ونهيه وفرض لهم فرضاً وسماهم الجرادية وفرضاً للحبشان وسماهم الغرابية ورفض النساء الحرائر والاماء. وفي ذلك يقول بعضهم من جملة ابيات خاطب بها الرشيد المدفون في طوس واشار الى الامين والخصيان قائلاً :

لهم من عمره شطر وشطر	يعاقر فيه شرب المتدربس
وما للغانيات لديه حظ	سوى التقطيب والوجه العبوس

وجرى الناس على دين الامين في ايثار الغلمان والخصيان وعمت الرغبة والتنافس في اقتنائهم وايثارهم على الجواري وصارت الخلافة الى المأمون فعاد اليها البهاء والى القائم بها الوقار وبقيت الحال على ذلك او قريباً منه الى ان قعد المتوكل فملك الامين وزاد عليه واشخص ابا العنبس الصيمري وقال له : انت مني بمنزلة ابي نواس من عمي وطالب الشعراء ان يشبّبوا

١) ديوانه ٤٨٣٠ باريس ٢٩٦

٢) ديوان ابي نواس ٤٨٣٠ خزانة باريس ٢٩٦

بالغلمان وقد كان البحتري في اول مـا وصل اليه شبّب بالاناث في قصيدته التي اولها :

نفى النفس من اسماء لو تستطيعها بما وحدها من غادة وولوعها

فاعرض عنه وقال هذا الشاعر يتهوّع مما قال : عُها عُها فقصده البحتري بمثل قوله :

مني وصل ومنك هجر وفيّ ذلّ وفيك كبر

فحظي عنده وصار من ندمائه ودخل اليه مروان الصغير فوقف بين يديه فقال : هات ودعني من ذكر اسماء وسلمى فانشده :

قدّ الحبيب ولا تشبّه اضحى ومسك غير همّه

فاستوى قاعدًا وقال : زد على هذا فقال :

بيضاء خالط وجهها ورد فكيف لنا بشمّه
تمشي كما يمشي الغلا م وكمّها رخص ككمّه
ولأنت اشبه بالغزا لِ سوالفا منه بأمّه
ذمّ الخلافة جعفر ما زمّها احد كزمّه
يا حبذا الله التي دان الطغاة لخوف سمّه
ما لابن بنت مدخل بين ابي وبين عمّه

فقال : لو كان تشبيبك مذكرًا لاصحبتك مثل ما اصحب جدي الرشيد جدك مروان ثم وصله بخمسين الفًا[1] .

ومما تقدم يتحصل ان اول من اعان على تفشي هذا الداء الخبيث في الدولة العباسية وحمل الشعراء على احلاله محله من الغزل والنسيب وجعل للغلام هذه المنزلة الفاضحة في القلوب التي اغرت بمنافسته ومحاكاته في زيه وشكله وحركاته وخصائصه هم رجال بني العباس وبعض خلفائهم والناس كما قيل على دين الملوك

ولذلك لما عاينت زبيدة ام الامين ولع ابنها بالخيم والخصيان وإعراضه عن الحرائر والاماء ارادت مداواته بنفس الداء فاختارت له الجواري الحسان وابرزتهن له في زي الغلمان وهذا نص ما رواه المسعودي في اصل اتخاذ الغلاميات قال :

١) ديوان ابي نواس ٨٣٠ خزانة باريس ٢٠٠-٢٠١

«ذكر محمد بن علي العبدي الخراساني الاخباري وكان القاهر به آنساً قال: خلا بي القاهر فقال: تصدقني عن هذه؟ واشار الى الحربة فرأيت والله الموت عياناً بيني وبينه فقلت: اصدق يا امير المؤمنين... قال: اخبرني ام جعفر زدني منها... قلت: لما افضى الامر الى ولدها يا امير المؤمنين قدّم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم ككوثر وغيره من خدمه فلما رأت ام جعفر شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجواري المقصودات الحسان الوجوه وعمت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والاصداغ والاقفية والبستهن الاقبية والقراطق والمناطق فبانت قدودهن وبرزت ارداقهن وبعثت بهن اليه وابرزهن للناس من الخاصة والعامة فاتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواري المطمومات والبسوهن الاقبية والمناطق وستوهن الغلاميات فلما سمع القاهر ذلك الوصف ذهب به الطرب والسرور والفرح ونادى باعلى صوته: يا غلام قدح على وصف الغلاميات فبادر اليه جوار كثيرة قدهن واحد توهمتهن غلماناً بالقراطق والاقبية والطرر والاقفية ومناطق الذهب والفضة فاخذ الكأس بيده فاقبلت اتأمل صفاء جوهر الكأس وفورية الشراب وشعاعه وحسن اولئك الجواري والحربة بين يديه فاسرع في شربه وقال: : هيه...»[1]

ومن اشهر من عرف من غلاميات الامين عريب المغنية الشاعرة الماجنة حظية الخلفاء. وهي في بعض الروايات بنت جعفر بن يحيى البرمكي سُرقت وهي صغيرة لما انتهب البرامكة[2] وزعموا ان المأمون قبّل في بعض الايام رجلها[3] قيل انه لم يكن بين النساء العب منها بالشطرنج والنرد حدث المعتمد قال: حدثني عريب انها كانت في شبابها يُقدَّم اليها برذون فتطفر عليه دون ركاب[4] وقد وضع عبدالله بن المعتز ديواناً في اخبارها[5] وحكت هي عن نفسها قالت: كنت لمحمد الامين وصيفة في عداد الوصائف البس قباء ومنطقة واقوم على راسه وسني اذ ذاك سبع عشرة سنة[6] وكان لبس القباء والمنطقة يومئذ زي الغلام

١) مروج الذهب طبعة باريس ٨ : ٢٨٩–٣٠٠
٢) الاغاني طبعة بولاق ١٨ : ١٧٧
٣) النويري نهاية الارب ٥ : ٩٨
٤) الاغاني طبعة بولاق ١٨ : ١٧٥ و ١٨٧
٥) النويري نهاية الارب ٥ : ١٠٨
٦) الديارات للشابشتي نسخة برلين ق ٢٠

وحكى جحظة في هذا المعنى قال : دخلت الى عريب مع شروين المغني ذي العُبَيس بن حمدون وانا يومئذ غلام علي قبا. ومنطقة فانكرتني وسألت عني فاخبرها شروين وقال : هذا فتى من اهلك هذا جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد وهو يغني بالطنبور[1] .

وما لبث الناس ان شغفوا بمثل هؤلاء الوصائف المقرطقات المنطقات المشبهات بالغلمان رشاقة وخفة[2] واختاروهن لمجالس الشراب وادخلهن الملوك والامراء في جملة الصلات والهبات الطائلة . حدث حماد بن اسحق الموصلي قال : « كان ابي ذات يوم عند اسحق بن ابرهيم بن مصعب فلما جلسوا للشراب جعل الغلمان يسقون من حضر وجاء غلام قبيح الوجه الى ابي بقدح نبيذ فلم يأخذه ورآه اسحق فقال له : لِمَ لا تشرب ؟ فكتب اليه ابي :

أصبح نديمك اقداحاً تسلسلها ... من الشمول وأنبهها باقداح
من كف رخم مليح الدل ريقته ... بعد الهجوع كمسك او كتفاح
لا اشرب الراح الا من يد رشإ ... تقبيل راحته اشهى من الراح

فضحك وقال : صدقت والله ثم دعا بوصيفة كأنها صورة تامة الحسن لطيفة الحصر في زي غلام عليها اقبية ومنطقة فقال لها . تولّي سقي ابي محمد فما زالت تسقيه حتى سكر ثم امر بتوجيهها وكل ما لها في داره اليه فحملت معه[3] .

ومن اخبار ابي نواس مع الخصيب امير مصر انه اقدم بعض التجار من الروم بغلمان فعرضوا على الخصيب . . . واتى بعض التجار ايضاً ومعه جوار روميات بديعات الحسن غريبات الجمال فعُرضن عليه فاذا فيهن وصيفة غلامية عجيبة الحسن من فيهن فدعا ابا نواس فقال : أرأيت في الغلاميات التي وصفتهن مثل هذه قط ؟ قال : لا قال : هي لك[4] .

وقد نبهنا سابقاً على ان الغلاميات كنّ غالباً من الوصائف والإماء.

---

١) الاغاني ١٨ : ١٧٨

٢) قطب السرور في اوصاف الخمور للرقيق الندم خزانة بريتيش موزيوم Or. 3628 f° 132

٣) الاغاني ٥ : ٨١

٤) اخبار ابي نواس لابن منظور ٢٦١

الاحسيات دون حرائر من الاشراف والنبهن كن يترفعن عن مثل هذه الاستذال والتقليد » ووصفت المتوكل ريطة بنت العباس بن علي فخطبت اليه فتزوجها ثم سألها ان تطعم شعرها وتتشبه بالمماليك فأبت عليه فاعلمها انها ان لم تفعل فارقها فاختارت الفرقة فطلقها [1]

ولا يعرف بالضبط متى نشأ الزي الغلماني في الحضارة العربية وهل حدث في اواخر الدولة الاموية ام انه دخل العراق مع العباسيين واشياعهم من الفرس والخراسانيين ولم نجد اقل الماع اليه في عهد السفاح والمنصور ولعله كان مكتوماً غير متداول جهراً لمكان المنصور الذي كان يتشدد في اللباس والاقتصاد وقد عاقب مرة احد كتابه لانه شاهد سراويله من الكتان [2] ونشأ ابنه المهدي على غير ما كان ابوه عليه من الغيرة والحزم واليقظة وسمع قول ابي العتاهية :

ألا ان جارية للامـ ـم قد أسكن الحسن سرباتها
مشت بين حورٍ قصار الخطا نجاوب في المشي أكفالها
وقد انعب الله نفسي جسا وانعب في اللوم عذالها [3]

فلم ينكر عليه هذه القصة وكاد يهبها له ولم يرَ اقل بأس في ابراز ابنته البانوقة [4] لعيون الملإ « في هيئة الفتيان عليها قباء اسود ومنطقة وشاشية متقلدة السيف » تسير بينه وبين صاحب الشرطة [5] فلا بدع اذا تكاثرت الغلاميات في زمانه وتعددت جواري قصر الخلافة حتى بلغن في ايام الرشيد زهاء اربعة آلاف جارية « وكان الرشيد قد أهديت اليه جارية في غاية الجمال والكمال فخلا معها يوماً واخرج كل قينة في داره واصطبح فكان جميع من حضره من جواريه المغنيات والخدمة في الشراب زهاء الفي جارية في احسن زي من كل نوع من انواع الثياب والجوهر واتصل الخبر بام جعفر فغلظ عليها ذلك فارسلت الى

---

١) المحاسن والاضداد المنسوب للجاحظ ليدن ٢٣٠
٢) كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ١٥٣
٣) الاغاني ٣ : ١٤٢
٤) ورد في الكامل لابن الاثير « الباقرتة » وهو تصحيف وروي في كتاب الفهرست « البانوجة » بالجيم المصرية (ص ٤٢٦) .
٥) تاريخ الطبري مطبعة الاستقامة القاهرة ٥ : ٤٠٥

عُلَيّة تشكر اليها فارسلت اليها عاية : لا يهولنّك هذا فوالله لاردنّه اليك قد عزمت ان اصنع شعرا واصدع فيه لحنا واطارحه على جواريّ فلا تبقى عندك جارية الا بعثت بها اليّ وألبستهنّ الوان الثياب ليأخذن الصوت مع جواريّ ففطنت ام جعفر ما امرتها به علية فلما جاء وقت صلاة العصر لم يشعر الرشيد الا وعلية قد خرجت عليه من حجرتها وام جعفر من حجرتها معها زهاء الفي جارية من جواريها وسائر جواري القصر عليهن غرائب اللباس وكلهن في لحن واحد هزج صنعة علية :

منفصل عني وما قلبي عنه منفصل
يا قاطعي اليوم لن نويت بعدي ان تصل

فطرب الرشيد وقام على رجله حتى استقبل ام جعفر وعلية وهو على غاية السرور وقال : لم أرَ كاليوم قط يا مسرور لو تبقيّ في بيت المال درهماً الا نثرته فكان مبلغ ما نثره اليوم ستة آلاف الف درهم وما سُمع بمثل ذلك اليوم قط »[1].

ولا ريب ان عدد الغلامات اربعة آلاف بين جواري القصر كان طائلاً لولع الرعاة والرعية في مثل هذه الازياء الظريفة التي كانت غالبة على اكثر الوصائف والخدم وكان الرشيد لا يرى بأساً في بذل غلامياته لاولاده حدث ابو بكر بن الانباري باسناده الى منصور البرمكي قال : كان لهرون الرشيد جارية غلامية يعني وصيفة على قد الغلام وكان المأمون يميل اليها وهو اذ ذاك امرد فوقفت يوماً تصبّ على يد الرشيد من ابريق معها والمأمون جالس خلف الرشيد فاشار اليها كأنه يقبلها فانكرت ذلك بعينها وابطأت في الصبّ على مقدار نظرها الى المأمون واشارتها اليه فقال الرشيد : ما هذا ؟ ضعي الابريق من يدك ففعلت . فقال : والله لئن لم تصدقيني لاقتلنّك فقالت : يا سيدي اشار اليّ عبدالله كأنه يقبلني فانكرت ذلك . فالتفت الى المأمون ونظر اليه كأنه ميت لما داخله من الجزع والخوف فرحمه وضمّه اليه وقال : يا عبدالله أتحبّها ؟ قال : نعم يا امير المؤمنين قال : هي لك . . . »[2]

١) الاغاني ٩ : ٨٨

٢) امالي القالي طبعة ١٣٢٤ ج ١ : ٢٢٩ — ٢٣٠ وتاريخ بغداد ١٠ : ١٨٥

وشب مأمون ، فلما علي حب الغلامية ، فصارت الخلافة اليه كان يلبس من يختاره من جواريه لباس الغلمان ولا يكتم التشوق اليهن » قال عيسى بن ابان : كنت عند المأمون فاستأذنته في الخروج الى البصرة الى عيالي فقال : انا اشوق منك الى عيالي ولكن وجّه اليهم فيحملوا . ثم قال لخادم على رأسه : مُرهم بالوصول . واقبل غلام لا نبات بوجهه مغلف بالغالية فسلّم فقال : مرحباً فاجلسه على فخذه اليمنى واقبل آخر واقعده على فخذه اليسرى فجعلت انظر اليهما والى حسنهما . . . فقال : يا عيسى انهما جاريتان اشتهيتهما في ذي الغلمان . . .»[1]

وقد مرّ بنا آنفاً ولع الامين والمتوكل والقاهر بالغلاميات ولعل المتوكل كان بعد الامين اشد الخلفا غراماً بهذا الزي المذكّر ولم يكن عنده احظى من قبيحة ام المعتز وله فيها اشعار منها :

انسانة كالشمس هيفانة ... احسنها ليست من الانس
مليحة الشكل غلامية ... احسن في الحسن من الشمس[2]

وكان اكثر من يؤثر منهن المطمومات اي المقصوصات الشعر وقد تقدم انه سأل امرأته ريطة ان تقص شعرها ولما أبت طلقها ولم يخرج قط حتى امكنته الفرصة من انتزاع من اعجبته منهن ولو قهراً قالوا : «كانت نخلة جارية الحسين بن الخال قبل ان يتولى المتوكل الخلافة تقعد بين يديه وتغنيه فولدت للحسين ابناً فلما ولي المتوكل الخلافة طرقه ليلاً فقال له الحسين : زرتنا جعلت فداك ؟ قال : اشتهيت ان اسمع غناء نخلة فاخرجها اليه مطمومة الشعر فقال : يا خال أليس قد ولدت منك ابناً ؟ قال : بلى قال : انا احب ان تعتقها قال : فانها حرة قال : فاشهد اني قد تزوّجتها قومي يا نخله . فاشتدّ ذلك على الحسين فعوّضه عنها خمسة عشر الف دينار وحوّل نخلة اليه . . .»[3]

ومن هذه الشواهد كلها يتبين ان العراق كان موطن الغلاميات ومطلع اقمارهن ومباءة ملكهن والسوق الاعظم الذي تتفق فيه كل شاطرة وشاردة

---

١) غيث الورى الذي انسجم في شرح لامية العجم باريس ٣١١٩ ص ٢٩٤
٢) مرآة الزمان خزانة بريتيش موزيوم Or. 4618 f° 152 a
٣) المحاسن والاضداد ليدن ٢٣٦

منهنَّ خلافاً لمصر فانه يلوح انهن لم يبلغن قط فيها الشهرة التي بلغنها في بغداد وهو لا يخلو من الغرابة نظراً لما عرفت به مصر من التبسط في فنون المعيشة والاخذ بنصيب وافر من كل جديد في الحياة والاقبال على كل طريف وعجيب في العادات والازياء. والولع بكل طارئ من الملاهي والبدع ولا سيما في دولة الفاطميين وقد قلبنا كل ما نالته يدنا من الادبيات المصرية وكتب الاخبار والتاريخ ودواوين الشعراء فلم نهتدِ الا الى بيتين للامير تميم بن المعزّ من ارجوزة له في وصف ساقية قال فيها :

طاهرة الذيل والمختان ... في هيئة المرد من الغلمان
شاطرة ساحرة اللسان ... ترفعت عن شبه النسوان[1]

يريد بالمختان ما يعرف اليوم بالقفطان وهو القباء الذي كان يلبسه الذكور والسقاة ولا ريب انه فاتنا كثير من امثال هذا الوصف في ما ضاع او قذفت به يد الغير والخطوب في مهب كل ريح من الفتن والنكبات وقد روينا قبلاً انه في ايام الخصيب امير مصر ورد بعض التجار بجوار روميات بديعات الحسن وان الامير اختار ابرعهنَّ جمالاً ووهبها لابي نواس وهو ما يدل على ان القاهرة كانت ايضاً معرض الغلاميات والحلبة التي كانت تتسابق فيها غانيات الصقالبة والروم ولعل ذلك يصح ان يقال ايضاً في الشام لان دمشق كانت سوقاً من اهم اسواق النخاسة ومع ذلك فقد خفي علينا معظم اخبار الغلاميات فيها فلا ندري شيئاً مما كان يجلب اليها او يروج فيها لقلة احتفال المؤرخين والكتاب بشؤون التجارة وضروب المعيشة والحضارة وقد تتبعنا ايضاً اشعار الشاميين في ما جمع منها كالتيمة والخريدة واشباههما فلم نظفر منها بطائل ووقف بنا التوفيق امام ابيات ثلاثة لم تكن تخطر ببال تتضمن الاولان اشارة الى الغلامات في اثناء وصف دير البنات المشرف على ارض طرابلس وهما للطيبي الشاعر :

وبيننا خود كشمس الضحى ... واغيد قد فاق بدر التمام
لولا نبات الشعر في خده ... لم ندرِ اي الاغيدين الغلام

---

١) ديوانه ليدن Arab. 2038 f° 314

وعرب عنه نبيت ثابت المطران سليمان البستاني من قصيدة ذكر فيها دير سمعان ومزارات القدس فقال :

دخلت بغير حذر عليه ولا امرأة عن شكل الغلام

يريد انه دخل الدير بعد زهده في النساء. والجواري الغلاميات وهو ما يدل على شيوع زي الغلاميات حتى بين النصارى .

ومن الثابت المحقق ان لقب «الغلامية» هو من الالفاظ العباسية ولم يكن معروفاً في ايام الامويين وهو ما صرّح به محمد بن علي الخراساني الاخباري حيث قال للخليفة القاهر بالله «اتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواري المطمومات والبسوهنّ الاقبية والمناطق وسموهنّ الغلاميات» . . .